إشكالية الشر على ضوء أصالة الوجود

حميد رضا آية اللهي*
ترجمه عن الإنكليزية: طارق عسيلي

يرى ملا صدرا أن حيثية الوحدة والخيرية في الأشياء تعود إلى الوجود، وأن حيثية الشر والتمايز في الأشياء تعود إلى الماهية.

وهكذا يكون كل خير منسوب لله، وكل شر يعود إلى الماهية الاعتبارية التي لا واقعية لها؛ بسبب كونها في المراتب الدنيا من مراتب الكمال الوجودي.

كيف يمكن معالجة إشكالية الشر على ضوء القول بأصالة الوجود واعتبارية الماهية.. هذا ما يتناوله البحث التالي:

* باحث في الفكر الفلسفي - إيران.

شكلت مشكلة الشر، على مدى العصور القديمة، واحدة من أهم المشكلات الفلسفية والكلامية، حيث اعتبر بعضهم أن هناك تناقضاً بين الإيمان بالله، ووجود الشر، وأن على المؤمنين بوجود إله حلُّ هذا الإشكال.

ويعود طرح المشكلة إلى الفيلسوف أبيقور (٣٤١- ٢٧٠ ق.م) الذي صاغ المشكلة بكلماته الشهيرة:

هل يريد الله منع الشر ولكنه لا يقدر؟ إذاً هو عاجز.

هل هو قادر، ولكنه لا يريد؟ إذاً هو حقود.

هل هو قادرٌ ومريد؟ من أين الشر إذاً؟

في العصور الحديثة تغير وجه المشكلة، فبدل إنكار بعض الصفات الإلهية، بدأت تشكلكشكلة الشر أساساً لإنكار وجود الله. وأشهر الآراء في هذا المجال هو الذي قدمه ج.ل. ماكي (J.l.Mackie.) وبسبب الآراء الخاصة حول النموذج المسيحي لـ"المحبة الإلهية"، كانت المشكلة واحدة من أكثر المسائل جدية في الفلسفة واللاهوت الغربيين؛ حيث إنه لا يمكن العثور على فيلسوف دين، أو لاهوتي، لم يتعرض لهذه المسألة. أما بين المفكرين المسلمين، فقد كان لهذه المشكلة وجه آخر، فهي لم توجه نحو المحبة الإلهية، إنما وجهت نحو العدل الإلهي، وهذا ما جعل طريقة المعالجة تختلف عما هو موجود في الغرب. سوف أبحث في هذه المشكلة وحلولها في الفكر الغربي ثم أقدم الحل في ضوء أسس فلسفة ملا صدرا، وبالتحديد مبدأ "أصالة الوجود".

كانت المشكلة بالغة الأهمية في الفكر الغربي؛ حيث إن بعض الفلاسفة قالوا: بوجود حل لها، مثلاً: فلسفة وايتهيد وأتباعه الإجرائية قدمت بعض وجهات النظر التي تلغي المشكلة من أساسها. ففي اللاهوت والفلسفة الإجرائية، إن القدرة الإلهية ليست إجبارية، إنما هي نوع من القدرة المتابعة، وبحسب هذه النظرة تكون القدرة الكلية للإله مرفوضة، ولا يكون وجود الشر خطيئة العمل الإلهي.

في العصر الحديث طرح دايفد هيوم (١٧١١- ١٧٧٦) المشكلة من خلال مناقشته في كتاب «حوارات في الدين الطبيعي» وعلى لسان شخصية الفيلسوف، إن ما يؤدي إلى الشك بوجود الإله، ليس مجرد وجود الشر، إنما كميته الهائلة، وقد رأى أن كمية الشر في العالم تفوق كمية الخير فيه، وهذا ما يجعل أمر التوفيق بين هذه الفرضيات في غاية الصعوبة.

كما حاول لايبنتس (١٤٤٦- ٧١٦) أن يبين العدالة الإلهية؛ حيث برهن في مؤلفه "العدل الإلهي" «The Theodicy» أن وجود الشر لا ينفي وجود الله بأي شكل من الأشكال،

وردّ على اعتراضات هيوم، مؤكداً أن الله سمح بوجود الشر لكي يسبب خيراً أعظم، وأن سقوط آدم كان "خطيئة سعيدة"؛ لأنها أدت إلى تجسد الإله، رافعة البشرية إلى مصير أسمى من الذي كان يمكن أن تلاقيه لو اختلف الأمر.

أما في الصياغات المعاصرة للمشكلة، خاصة بما تشكله من دليل على عدم وجود الله، فإن الدليل يصاغ بالمقدمات والنتائج التالية:

١) الله كلي القدرة وكلي العلم.

٢) الله كامل الخيِّرية.

٣) الشر موجود.

٤) إذا كان الله (الكلي القدرة، والكلي العلم، والكلي الخيِّرية) موجوداً، لا يمكن أن يوجد شر (أو شر غير ضروري) في العالم.

٥) الشر (أو الشر غير الضروري) موجود في العالم.

٦) إذاً، الله غير موجود.

الدفاع الأساسي عن وجود الله في ضوء وجود الشر، هو الدفاع المرتكز على حرية الإرادة، فإذا عدنا إلى القديس أوغسطين (٣٥٤- ٤٣٠) وقرأنا المعالجات الحديثة في أعمال جون هيك John Hick و آلفن بلانتنغا Alvin Plantinga وريتشارد سوينبرن Richard Swinburne, نجد أن دفاع الإرادة الحرة يضيف مقدمة رابعة إلى مقولة أبيقور الموهمة للتناقض، لكي نبين أن المقدمات ١- ٣ منسجمة وغير متناقضة.

٧) يستحيل منطقياً على الله أن يخلق كائنات حرة ويضمن أنها لن تفعل الشر.

ولأن خلق كائنات حرة ومسؤولة أخلاقياً هو عمل خيّر، فلا يوجد ما يضمن أنها لن تقوم بأعمال شريرة.

إن دفاع أنصار الإرادة الحرة يدّعي أن جميع الشرور الأخلاقية ناتجة عن الإرادة الحرة للمخلوقات، لكن ماذا يقول المؤمنون عن الشر الطبيعي؟ لقد ميَّز الفكر الغربي بين نوعين من الشرور: أخلاقي وطبيعي.

"الشر الأخلاقي": يشمل كل الأمور السيئة التي يكون الإنسان مسؤولاً عنها أخلاقياً.

"والشر الطبيعي": يشمل تلك الأحداث الرهيبة التي تحصل من غير إكراه، مثل الأعاصير والعواصف والزلازل والبراكين والفيضانات والأمراض الطبيعية وغيرها... مما يسبب آلاماً للبشر والحيوانات.

هناك طريقتان مختلفتان لمعالجة إشكالية الشر الطبيعي:

الأولى: وهي التي قدمها آلفن بلانتغا Alvin Plantinga ، وتتمثل بنسبة الشر الطبيعي

مثل: الأمراض والأعاصير والزلازل.. لعمل الشيطان وأعوانه.

الثانية: وهي التي يفضلها سوينبرن ,Swinburne وبحسب هذه الطريقة فإن الشر الطبيعي هو جزء من طبيعة الأشياء، وهو ناتج عن اجتماع القوانين الطبيعية الحتمية والضرورية للعمل المتناسق والمسؤولية المعطاة للبشر لممارسة حريتهم.

أصالة الوجود ومشكلة الشر:

إن أصالة الوجود سوف تغير رؤيتنا إلى حقيقة العالم ما سيغيّر مشكلة الشر من أساسها. فقد ناقش الملا صدرا مسألة العدل الإلهي والخيِّرية المطلقة لله في جزأين من كتابه الشهير الأسفار الأربعة. ففي المجلد السابع كانت معالجاته شبيهة بتلك التي طرحها المفكرون الغربيون، مثل نسبية الشر، ونسبة الشر إلى العدم الذي لا خالق له. وأن حجم الخير الموجود في العالم أكبر من حجم الشر وإلى ما هنالك...

أعتقد أن هذا النوع من الردود مبني على أساس القول: بأصالة الماهية الذي يختلف عن الأسس الفلسفية للملا صدرا. لكنه في المجلد الثاني من كتاب الأسفار يقدم وجهة نظر أخرى حول طبيعة الشر تعبر عن النتيجة المباشرة لمبنى أصالة الوجود، لكن قبل التعرض لدراسة هذا الرأي، لا بد لنا من شرح أصالة الوجود التي تشكل المفصل الأساسي في الفلسفة الإسلامية.

وبحسب الملا صدرا: إن "فكرة الوجود" هي واحدة من أوضح المفاهيم، فهي بديهية وواضحة بذاتها؛ لأن الوجود ظاهر بنفسه مُظهِر لغيره، ولا حاجة لأي شيء آخر ليزيده وضوحاً.

أما حقيقة الوجود، فهي في غاية الخفاء؛ لأن حقيقته خارجية، وإذا وصلت حقيقته إلى أذهاننا كما هي فسوف يكون هذا الأمر رفضاً للحقيقة؛ لأن الحقيقة بما هي حقيقة - وليس مفهومها- يجب أن تكون خارج الذهن. أضف إلى ذلك أنه كانت حقيقة الوجود كانت موجودة في الذهن - كحقيقة النار- فإن آثاره أيضاً- سيكون لها واقع في الذهن- وبحسب مثل النار فإن الذهن يجب أن يحترق!

عندما ندرس بعض أدلة الحقائق مثل وجود "الأنا" ووجود "الأرض" ووجود "الشجرة" ووجود "البياض" وغيرها... ندرك وجود عدد من المفاهيم مثل "الشجرة" "البياض" "الأرض" "أنا".

وكل واحد من هذه المفاهيم يختلف عن الآخر. لكن رغم اختلافها فإن بينها أمراً واحداً مشتركاً، وهذا الأمر هو أنها "جميعها موجودة ولها واقع خارج الذهن". إذاً، نحن نعرف أن لدينا تصورين للأشياء، أحدهما مفهوم الشجرة والبياض والأرض... والآخر

هو مفهوم الوجود أو الواقع المرتبط بهذه المفاهيم، والأول يسمى "الماهية" والثاني "الوجود". وإذا درسنا بدقة سوف ندرك أن مفهومنا الذهني عن الوجود يختلف عن مفهوم الأشياء كالشجرة والأرض والبياض، التي ننسب لها الوجود. إن ذهننا يجيب الماهية - التي تقال في جواب "ما هو"- عن الوجود ويتصورها، ثم ينسب لها الوجود في الذهن. وهذا يعني أن الوجود زائد وعارض للماهية في الذهن، ومفهوم الوجود يختلف عن مفهوم الماهية أو أي جزء منها.

فعندما نقول: "الإنسان موجود" و "بروكسل موجودة" و "الشجرة موجودة"... نلحظ أن مفهوم "الوجود" في هذه الجمل هو نفسه، رغم أن مفاهيم "إنسان" "بروكسل" و "شجرة"، مختلفة، ورغم اختلافها فإن الوجود يحمل عليها بنفس المعنى.

أصالة الوجود:

في بعض الحالات، عندما ننسب شيئاً ما لآخر، هناك ما بإزاء خارجي لكل موضوع ومحمول تماماً كما لها حقائق في الذهن. فمثلاً عندما نؤكد أن "هذه الورقة بيضاء" أو "هذه المساحة مربعة" أو "ذاك الماء دافئ"، وكما أن كل كلمة مثل: ورقة، بيضاء، مساحة، مربعة، ماء، دافئ، لها مفهوم خاص في الذهن، كذلك في الواقع لكل واحدة منها حقيقة خارجية مختلفة وخاصة. ورغم ارتباط كل حقيقة بالأخرى، كحقيقة البياض المرتبطة بحقيقة الورقة، فإنها في الوقت نفسه لها حقيقتها الخاصة وانطباقها الخاص.

في بعض الحالات الأخرى، عندما نحمل محمولاً على موضوع تكون المسألة مختلفة، وفي هذه الحالات لا يكون لكل محمول حقيقة مختلفة وخاصة، ولا يوجد ثنائية في الواقع بين الموضوع والمحمول، بل يمكن أن نجد الوحدة بينهما في الواقع فقط؛ حيث إن الكثرة تنشأ فقط في الذهن. بمعنى آخر: إن الذهن يقسم الحقيقة الواحدة إلى عدة مسائل بقدرته التحليلية، ويُنتج تصورات ومعاني مختلفة عن الحقيقة الخارجية التي لا يكون فيها كثرة خارج الذهن.

من هذه الوحدات، الوحدة بين الوجود والماهية، فعندما نقول: "الشجرة موجودة" الموضوع والمحمول (مفهوم الشجرة ومفهوم الوجود) متكثران في الذهن وهناك اختلاف بينهما، وكما شرحنا سابقاً فإن الوجود زائد على الماهية في الذهن، لكن بالتأكيد المسألة ليست كذلك في العالم الخارجي. حيث إن ظهور أحدهما مجعول بالآخر أو أن أحدهما ينتمي للآخر. إنه الذهن الذي يكوِّن مفهومين مختلفين من هذه الوحدات الخارجية، ففي الواقع الماهية والوجود مثل الشجرة ووجود الشجرة والإنسان ووجود الإنسان ليسا صنفين من الحقائق؛ إذ كيف يكون لحقيقة واحدة حقيقتان بحيث تتألف من ذاتها

ووجودها أو واقعيتها؟ إن كل شيء يعرَّف بوجوده خارجاً وكليته - هذه الكلية في الذهن- يشكل وحدة. وما هذه الثنائية، إلا نتيجة للقدرة التحليلية للذهن. وبعبارة أخرى: لا يمكن أن يكون الوجود والماهية معاً أصيلين. من جهة أخرى، لا يمكن أن يكون الوجود والماهية معاً غير واقعيين، بحيث يكون الاثنان مجرد وجود ذهني؛ لأن هذا يؤدي إلى مثالية لا تعترف بأي وجود موضوعي للأشياء خارج ذواتنا.

إذاً، إما أن يكون الوجود هو الذي يعبّر عن الواقع، وإما أن تكون الماهية، لأنه لا يمكن أن يكون الاثنان واقعيين، ولا يمكن كذلك أن يكون الاثنان غير واقعيين أو مجرد وجودات ذهنية.

تبنّى بعض الفلاسفة الرأي القائل: بأصالة الماهية، وأن الماهية هي التي تعبّر عن الحقيقة الخارجية، وأن الذهن عند ملاحظته للأشياء الحقيقية ينتزع منها مفهوم الوجود، وهكذا يكون الوجود مجرد مفهوم ذهني لا واقع له. وللوهلة الأولى يبدو هذا الرأي صحيحاً، وبسبب قوة العمل الذهني، نعتقد أن في الواقع أشياء، وأننا نحصل على مفهوم الوجود بانتزاعه من هذه الأشياء.

لكن الملا صدرا غيّر الطريقة الفلسفية، من خلال رأيه القائل: إن في العالم الخارجي وجوداً فقط (حقيقته وليس مفهومه)، وأن الذهن عندما يلاحظ حدود الوجود أو الواقع، يكوِّن بعض المفاهيم للأشياء المختلفة. وهكذا تكون الأصالة والواقعية للوجود، وتكون الماهية افتراضاً ذهنياً، وهذه النظرية تسمى "أصالة الوجود".

أصالة الوجود والشر:

فلنعد الآن إلى مشكلة الشر، لنرى كيف تواجه نظرية أصالة الوجود هذه المشكلة.

إذا تتبعنا الشر في العالم، ندرك أن مشكلة الشر تنشأ في حالات النقص والفرق. حيث إن بعض الناس أكثر ذكاءً من بعضهم الآخر، وإن لبعض الناس أعيناً بينما حُرِم منها بعضهم الآخر، وهكذا... ألا يمكن للإله أن ينعم على الجميع بنفس المواهب؟ إنه خلق البشر يتألمون في حياتهم بسبب المحدودية والنقص، لكن ألا يستطيع من له القدرة الكلية أن يهب لكل شخص ما يحتاجه بدون أي نقص يسبب الألم الكثير؟ وإذا تمنى أحد ما لو كانت ظروفه أفضل مما هي عليه - بحيث يأمن من الشر المحيط به-، ألا يستطيع الله أن ينعم عليه كما أنعم على الناس السعداء، ويمن عليه بما من عليهم؟ ثم ألا يحق لهذا الشخص أن يحتج على تمييز الله بين البشر وتفضيل غيره عليه؟

إذا فكرنا بالطريقة التي يفكر فيها من يقول: بأصالة الماهية، ربما كان السؤال مشروعاً، لأنه يمكن لله أن يعطي كل شخص بعض الكمالات الإضافية فالأمر بيده، فإذا خلق الله شخصاً وكان هذا الشخص يشعر ببعض النقص والمحدودية، فقد يريد من الله أن يعطيه كمالات إضافية تجبر نقصه وتقلص محدوديته. أما على مبنى أصالة الوجود فإن الأمر يختلف، فالله لم يخلق شيئية الشيء، إن ما جعله الله هو الوجود، وبعد ظهور هذه المرتبة من الوجود، فإن الذهن ينتزع من حدودها مفهوم الماهية.

ليس هناك شيئية لأشياء في العالم يعطيها الله الوجود. أما التمايز بين الأشياء فيعود إلى نوع الحدود الناتج عن الكثرة الموجودة في عالمنا.

ولأن الإنسان موجود في العالم المادي بالضرورة، ولأن العالم المادي يجب أن يكون متكثراً بالضرورة، إذاً، يجب أن يكون هناك وجودات مختلفة ينتزع الذهن منها مفاهيم مختلفة. إذا كانت الحالة المادية للإنسان ضرورية له، بحيث لا يمكن أن يكون الإنسان دون أن يكون مادياً، فالفوارق بين البشر تعود ربما إلى جوهر الإنسانية والشرح التالي سيجعل المسألة أكثر وضوحاً.

جميعنا سمع تمنيات بعض الناس، لو أن آباءهم وأمهاتهم الحقيقيين كانوا أشخاصاً غير آبائهم وأمهاتهم الحقيقيين. دعنا نختبر مدى إمكانية هذا الكلام.

مثلاً، يتمنى (توم) لو أن أباه (أ) وأمه (ب) غير الذكيين وغير الغنيين كانوا أشخاصاً آخرين مثل أب (ديك) (س) وأمه (ص) الذكيين والغنيين. ويعتقد (توم) أنه لو كان (س) و(ص) أباه وأمه، لكانت حياته أفضل. لكن لو فكر جيداً بمعنى هذه الفرضية لعرف أن هذا الكلام لا يعني شيئاً؛ ولأن أباه وأمه أشخاص مختلفون، لن يكون هو (توم)، فـ(توم) رجل موجود من أب وأم هما(أ) و(ب). فإذا كان (س) و (ص) أباً وأماً لشخص، فإنه بالتأكيد لن يكون نفس (توم) الذي يتمنى ذلك؛ لكنه سيكون (ديك) الموجود بمشخصاته. ويريد (توم) أن يحتفظ بمشخصاته التي تقتضي بالضرورة أن يكون (أ) و (ب) أباً وأماً له وفي نفس الوقت أن لا يكون (أ) و (ب) والديه، وهذا تناقض واضح، فلا يمكن لـ(توم) أن يكون موجوداً ما لم تتوفر الشروط الضرورية لوجوده.

إذاً، ألا يوجد تناقض في أن يخلق الله إنساناً - يختلف بالضرورة عن الآخرين بسبب

الكثرة في العالم المادي - لا يكون إنساناً - أي لا يختلف عن الآخرين؟

فنحن لسنا بعض الأشخاص الذين منحنا بعض الكمالات المختلفة.

الله خلق عالماً مادياً يجب أن يكون متكثراً، ووجوداً محدوداً بحدود مختلفة، ثم إن معنى الشخص نشأ بعد ذلك - أي معنى الـ"نحن" ظهر بالتجريد الذهني، والـ"نحن" لم تكن أولاً ثم مُنحت الوجود، إنما هناك وجودات أدركت من خلالها الـ"نحن".

يرى ملا صدرا أن حيثية الوحدة والخيّرية في الأشياء تعود إلى الوجود، وأن حيثية الشر والتمايز في الأشياء تعود للماهية.

وهكذا يكون كل خير منسوباً لله، وكل شر يعود إلى الماهية (التي لا واقعية لها) بسبب كونها في المرتبة الدنيا من مراتب الكمال الوجودي.